مما يدعو الى التخنث والخمول ويلقي في النفس بذور البدوات والرغائب عوضاً عن الارادة الحقة ويستميلها الى التماس ضالة الخيال بدلا من حقيقة العمل

ومهما يكن فالحياة لديكم ايها الشبان وهي ستكون مثلما تجعلونها وعندي ان مبداء السير يعتبر قليل الاهمية في حد ذاته بالنسبة الى ما ينتظر اجتيازه من طويل المسافة وبعيد الشقة فلتكن كيف شاءت الظروف التي اوجدكم بها القدر وسواء ولدتم او نشأتم وانتم صغار او مراهقون في العسر او في اليسر فانما حظكم في يدكم تجعلونه كما تريدون والوسيلة لبلوغ ذلك واحدة للجميع وهي العمل ثم العمل باقدام وجد وعزم ولا تحسبوا ان اغناكم مالا واوفركم ذكاء سيكون ارغدكم عيشاً واهنأكم بالا وابعدكم توفيقاً كلا ثم كلا فانما المغتبط السعيد هو من عرف الجمع بين الامضاء في العزيمة والنشاط في العمل فدونكم والعمل لانفسكم ولذويكم وللناس كافة فانما مرضاة النفس في العمل وفيه تحقيق مشتهياتها ولذاتها

وهو يلطف من وطأة الحياة ويخفف من وقرها ويسري الهموم والاشجان ويعين على احتمال المصائب التي لا مهرب منها ولا بد من وقوعها بل هو شريعة الانسانية المقدسة والشريعة الاجتماعية الحقة

لا جرم ان العمل هو منشأ الفضائل . اما تقول الحكمة ان البطالة هي ام المعاصي والرذائل فلا يعتبر الرجل البطال عديم النفع فقط بل هو مؤذ للهيئة مؤذ لنفسه اذ ان البطالة التامة ممتنعة فالذي لا يعمل اذن عملا نافعاً لا بد ان يعمل الشر

الحياة يحفظها العمل والبطالة تمنيها بالشلل ثم الموت وكل جديد لا يستخدم

لغرض من الاغراض يعلوه الصداء وهكذا الدماغ والاعضاء التي لا تقوم بعمل من الاعمال فانها تضعف ويتولاها الانحلال . اما الرجال الذين يتخذون العمل ديدنا ويكون النشاط رائدهم فهؤلاء في امان على قواهم وعلى صحتهم من المؤثرات الخارجية ومن المخاوف والهواجس التي تطيف بالكسالى واهل الخمول ولا يتطلعون مثلهم كل صباح طلع نيران الهواء او الجو حرصاً على ابدانهم الناعمة المسترخية ولا الى المرآة ليروا لون لسانهم . لا بل هم يعيشون عاملين ويستأصلون من الاصل جذور الداء الذي قد يتهدد عقولهم واجسامهم فهم اصحاء اذ هم عاملون

ومن فضائل العمل انه يعين على احتمال اعباء الحياة ومتاعبها برضى وطيب خاطر ويبعث في النفس الابتهاج والسرور . اما البطالة فهي تدعو بعكس ذلك الى الاكثار من التأمل واطالة الفكر في اتفه الامور واقل الشؤون اهمية فهي تعظم الهموم وتجسم الاشجان وبالتالي تبعث في النفس الكآبة والخلق الرديء ثم ما يتولد عن ذلك من سائر امراض الجسم

وهذه النتائج تبدو اشد ظهوراً لمن يقيم خارج اوربا في اي بلد من البلاد الحارة حيث كل شيء يبلغ فيه وحيث الاشياء تظهر في شكل غير الذي نعهده في البلاد المعتدلة وبالحقيقة ان الاوروبيين يعيشون هناك في وسط كل ما فيه عدو لهم من الشمس المحرقة والجو والارض الى الحيوانات والحشرات التي تعج فيها عجيجاً وهم لا يشتغلون كثيراً ولا يعملون من الحركة الا اقل ما يمكنهم وقد استسلموا مستضعفين الى قوى الطبيعة المقوضة الهادمة . ولذا ترى الداء والموت يفتكان في صفوفهم فتكا ذريعاً

اما الذين يتغلبون فهم وهم ويا للاسف النفر القليل على هذه المصاعب

ولا يخونهم نشاطهم العقلي والبدني فانهم يخترعون الاخطار ويجتازون عقباتها ويقومون بواجبهم حافظين الصحة والعافية

لعمري ان هذه الحقائق كلها اثبت من ان تحتاج الى برهان وهي كلها تشير الى ما في وصية العمل التي انزلتها الحكمة على الانسان من السداد والرشاد وهي عذري فيما تضمنته اقوالي من الالحاح على القراء الذين احب ان اراهم كلهم منضمين تحت راية العمل

وفي الختام اسمحوا لي ان ازودكم بكلمة اخيرة وان اقول لكم دونكم والعمل دونكم والعمل بلا انقطاع ولا فتور واياكم والبطالة واعلموا ان راحة الجسم في شغل الفكر وراحة الفكر في شغل الجسم

الفصل الخامس

﴿ التثقيف الادبي ﴾

لا ينتهي التهذيب الادبي عندما يبلغ المراهق من الرجال بل يصبح اذ ذاك اشد لزوماً من ذي قبل واوفر عائدةً لان المهذب الذي يتولى وحده في ذلك الحين تثقيف النفس يكون على الغالب مسموع الكلمة مؤثراً نصحه وارشاده وهو الانسان نفسه ثم الحياة التي هي مرشد شديد المراس واي مرشد اذا لم نحاذر قوارص تقريعه ولوادغ تأنيبه وقاسي عقابه ولم نسلك طريق الاصلاح وسبيل الكمال

والمرء صغيراً تكون عيوبه صغيرة ولكنها تكبر مع العمر او تصير سمجة قبيحة عديمة الاحتمال اذا بقيت على حالها فالكذب مثلا في الطفل مكروه ولكن اذا ظل ملازماً له حين يصبح رجلا كان عيباً شائناً مذلاً وكذا النهم فانه خطيئة عرضية عند الطفل ولكنه في الشباب شهوة حيوانية مستنكرة

فالحرب التي يشهرها التهذيب على الاحداث لحملهم على تقويم المعوج من اخلاقهم لا يصح اذن ان تكف عند بلوغهم سن الرجولية اولا لان الفوز التام ممتنع ولان الكمال لم تدرك قمته وهي لن تدرك لاستحالة ذلك ثم لان اطوار الحياة تولد رذائل وعيوباً جديدة النوع توجب التوقي منها او دفعها اذا راودتنا عن انفسنا وانتزاعها اذا كانت قد سبقت فعلقت بنا

ولا بد للشاب في حياته من وقت يمر عليه (وبودي ان يتصاقب ميعاده مع تلاوة هذا الكتاب اذا لم يكن قد سبقه) يستجمع فيه توارد افكاره ويعمل رويته لفحص طبيعته الادبية فحصاً دقيقاً صادقاً واستبطان دخائلها وسبر اعماقها والتثبت مما فيها من شر يتحتم استئصاله ومن خير ينبغي الاحتفاظ به او الاستزادة منه

ولقد جرى فرنكلين على هذه الطريقة فانشاء بعد ما اعمل الفكرة في استطلاع احوال نفسه حساباً قانونياً بما له من فضيلة وحسنة وما عليه من عيب او نقيصة وبما كان ينقصه من قيم الخصال الممدوحة وما كان يزيد فيه من الخلال الذميمة ثم استخرج من كل ذلك رصيداً شاملا للارباح والخسائر على اتم ما يكون من الدقة والضبط

ولقد يعترض بان كل الناس لا يستطيعون مع الاسف ان يكونوا

فرنكلين وهو قول حق ولكن من الحسابات والموازين ما ينقش على لوح الدماغ دون ان يكون في حاجة الى تسطيره على القرطاس ومع ذلك فان لكثير من الشبان ميلا الى ان يدونوا بالكتابة ما تحققوه بانفسهم او مر بخواطرهم وما عقدوا عليه العزم وهو ما فعلته انا بنفسي في نحو الثامنة عشرة من عمري ولكني اعترف بان الحال لم تحوجني قط الى الرجوع لهذا الصك لاعادة النظر فيه اذ ان المخيلة كفتني مؤونة هذا العناء بما ارتسم عليها من آثاره ووعته من خلاصته

على ان الذي يهم من هذا الامر انما هو ان يتعرف الانسان العيوب والرذائل التي يجب استئصالها منه ان كانت موجودة فيه او التي يجب التوقي منها ان كانت تتهدده وكذا الفضائل والمحامد التي ينبغي تقويتها وتعهدها ان كانت مغروسة فيه او التحلي بها ان كان منها عاطلاً فاذا ما تم ذلك والادارة والشجاعة معاونتان عليه فلا بد للانسان من بلوغ النتيجة الحسنة باذن الله

فمما يجب اولاً على الانسان ان يلزم نفسه اياه حتى يصبح عادة انما هي محبته لكل ما حوى معنى الحقيقة والجمال والخير والعظمة بحيث لا يكون له ميل او ممالأة لما خلا من هذه العواطف الشريفة والوجدانات السامية وكان معدوداً من سقط المتاع وان يكون شديد النفرة والكراهة لكل شيء سافل قبيح دنيء . ولا بد من القضاء بلا رحمة ولا اشفاق على الامور الشائنة المعيبة . واذا جاز التساهل والصفح في بعض الحالات فليكن هذا مع الجهلة من الرجال الذين طاشت اخلاقهم وضل رشادهم وراحوا في غيهم يعمهون

لا جرم ان الشعائر الكريمة والاميال الشريفة لما يجب ممارسته بلا انقطاع حتى تنمو وتتأصل فينا كالملكات ثم تصبح فاذا هي ينابيع لا يغيض ماؤها من مناهل النشاط التي تبعث مع الحياة من اسباب السعادة والهناء للنفس والجسم معاً بقدر ما تمنيهما الشهوات الذميمة من البؤس والشقاء .

ولا ينكر ان الشهوات تحارب الفتور والخمول وتدفع عن الانسان ما يتهدده من قلة المبالاة التي قد تفنيه باسرع مما قد تفعله به الرذائل وارتكاب والموبقات لكنها نافعة على شرط ان لا تكون مطلقة العنان مطلقة السيطرة على الانسان وان تبقى معتزلة خاضعه لسلطان الارادة والعقل بل هي اعوان يصح استخدامها لمثل هذه الوظيفة دون غيرها فيما هو قائم في نفس الانسان من العراك الدائم بين الرذيلة والفضيلة وبين الخير والشر . ولا غرض من التثقيف الادبي الا ان يهيء للانسان اسباب الفوز على الشر في هذا المعترك الى ان يتطبع بعادات ويجري على قواعد تصد عنه هجمات الشر وتفل منه الغرار

ولمن اراد ان يعيش عيشة راضية وان ينصرف بكليته الى العمل دون الاخذ والرد على غير طائل وان لا يستفز تنبه ضميره لرده الى الطريق السوي ان حاد عنه لابد له من اركاز ممارسة الخير على مبادىء قد اقرها وحتم على نفسه العمل بها بطريقة مطردة تكون لديه خلقاً ثانياً لا قبل للتحول عنه

فاذا تسنى للانسان ادراك هذا الشأو فقد بلغ درجة من الكمال تتناسب مع طبيعته البشرية وضمن لنفسه حياة كلها غبطة وهناء

ومما لا ريب فيه ان متابعة الشر وارتكاب المنكر يستلزمان القصاص

وهو واقع بنا لا محالة بما يقوم في ضمائرنا من الوخز والتبكيت وبما يحل بابداننا من الوهن وعذاب الداء والسقام وقلما نرى العدالة الساهرة الا وهي اخذة مجراها فاعلة فعلها فهي التي تستولد الآلام والندامة من الشر وتفسد علينا الحياة بعكس الخير والصلاح فهما منهلان صافيان للسرور والابتهاج

وكل من عمل على الاستزادة من الكمال وتهذيب اخلاقه فقد اطاع الواجب الاول من واجبات الانسان نحو نفسه . اما التثقيف العقلي فانه يجيء ثانياً ولو ان الحاجة اليه ماسة والضرورة ملحة

ومهما اكثرنا من بذل العناية في التهذيب الادبي فلا افراط ولا ملام اذ انه اكثار محمود العاقبة غير مقصور الفائدة علينا فقط بل يتناول نفعه من يطيف بنا ويحتاطنا . وعلى الجملة فان الهيأة الاجتماعية بكليتها تسعد باخلاقنا وفضائلنا الحقة وتشقى بعيوبنا ورذايلنا الشائنة

وبعد فما هي القاعدة التي يجب على الشاب ان يختطها لنفسه ليصبح الرجل الكامل الذي تتمثله اماماً تأتم بمثاله ودليلا تنسج على منواله

انه يجب اولا ان يكون صادقاً بسيطاً بعيداً عن التصنع والتكلف

اما الصدق فانه يلزمه احترامه في شخصه وفي اقواله وفي فعاله لان الكذب والرياء من اشد العيوب كراهة وادعى ما يكون الى الاخلال بالواجبات والمرء مدين بالصدق مع غيره على حد ما هو مدين به مع نفسه ولا يقتصر فعل الرجل الكذوب على تعريض نفسه للاهانة والاحتقار والالتحاف برداء العار بل هو يسلك بحياته في مأزق ضيق حرج كثير الصعاب وافر المتاعب فاذا كذب اول مرة اضطر الى ان يعيد الكذب لمحو ما كان منه اولا ثم يستأنف الكرة لمحو ما كان منه ثانياً وهكذا يستمر متوغ

في الكذب ممعناً في النفاق حتى تصبح الحالة عديمة الاحتمال ويبقى حليف القلق والاضطراب الا اذا تمسك باذيال الهوان وخلع عنه برقع الحياء

وانه ليعتبر صادقاً من كان بسيطاً بعيداً عن التصنع لان من تكلف شيئاً في طباعه ضده فقد اخفى نفسه واخفى الحقيقة او ليس حقاً ما قيل

واسرع مفعول فعلت تغيراً تكلف شيء في طباعك ضده

ولا مشاحة ان التصنع من العيوب المكروهة من الناس كافة ولا بد لمن يشعر بجنوح اليه من العمل على مقاومته الى ان يدفع غائلته وهو ناجح لا محالة في النهاية

واذا كان من السهل ان يكون الانسان غير متأنق في حركاته وسكناته فمن الواجب ان يكون قادراً على اقصاء هذا التأنق والتصنع عن نفسه وعن معيشته لانه من المستحيل ان يتاح للعقل المتصنع ان يكون تام الجمال كما ان الحياة التي يصرف فيها الجهد الى البهرجة وحب الفخفخة والظهور تضطر صاحبها الى اهمال الشؤون الجوهرية التي هي غاية الوجود واعتبارها من الامور الثانوية التافهة

ولقد قال واكنر الكاتب الشهير الذي ابدع في الكلام عن العيشة البسيطة ما ملخصه : « تتسلسل موارد السعادة والقوة والجمال على الغالب من ينبوع البساطة »

ومتى كان المرء صادقا بسيطاً بعيداً عن التصنع لزم ان يكون حر الضمير مخلصاً شريف النفس مستقيماً وفياً

وكون الانسان حر الضمير مخلصاً دلالة كبرى على جهره بالحقيقة كاملة على الدوام ولبيان واضح عمن هو وعما يختلج بصدره ويدور في خلده وفكره

البقية تأتي